

وخرج هو وأخوه العادل أبو بكر إلى الصيد شرقى دِمَشْقَ ، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما قد تفرغ من أمر الفرنج هذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم ، ويبعث أخاه إلى خلاط ، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان ، وبلاد العجم ، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها ولا يصُدُّهم عنها ، فلما قدم الحجيج من الحجاز الشريف في يوم الاثنين حادي عشر صَفَرٍ خرج ؛ وقدم معهم ولد أخيه سيف الإسلام ، وعاد إلى القلعة المنصورة ، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا ، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادسَ عَشَرَ صَفَرٍ ، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل ، وطال مجلسهم عنده ، ثم تزايد به المرض واستمر ، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض ، فبويع لولده الأفضل نور الدين على نائباً على دِمَشْقَ ، وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد ، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل ، وقاضي البلد ابن الزكي ، وتفاقم الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ؛ ليبيت عنده يقرأ القرآن ، ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر ، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في عمرات الموت ، فقرأ : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الحشر: (٢٢)] . فقال : وهو كذلك صحيح . فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق ، لأنه ولد بتكريت في شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وجرزاً وكهفاً مِنْ كَيْدِ الْكُفْرِ اللثام ، وكان أهل دِمَشْقَ لم يُصابوا بمثل مصابه ، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه ، واحتفظ على الحواصل ، ثم أخذوا في تجهيزه وغسيله ، وكان الذي تولى غسله خَطِيبُ البلد الفقيه الدولي ، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة [٣١٢/٩) التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال ، هذا وأولاده الكبار والصغار يترزون وينادون ويبكون ، والناس في التعويل والانتحاب والابتهاال ، ثم أبرز في تابوت بعد صلاة الظهر ، وأم الناس عليه القاضي ابن الزكي ، وذلك حين قيم ولده العزيز ، ثم اشترى له الأفضل داراً شمالي الكلاسة في وزان مازاده القاضي الفاضل في الكلمة ، هطلت محالب الرحمة عليها ، وكان نقله إليها في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين ، وصلى عليه تحت النشر قاضي القضاة محمد بن علي القرشي ابن الركي ، ودخل في تحده ولده الأفضل ، وذلك لما له عليه من الحتي والخدمة والإكرام ، ويقال : إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد ، وذلك عن أمر القاضي الفاضل أحد الأجواد الأمجاد ، وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه ، لما أنعم به عليه من كسر الأعداء ،